تفسير سورةُ الأنْبياءِ
من آية (71) إلى آية (75)
اللقاء السادس

المعنى الإجمالي من آية (51) إلى آية (70):

يقولُ الله تعالى: ولقد آتَينا إبراهيمَ هُداه مِن قَبلِ موسى وهارونَ، وكنَّا عالِمينَ أنَّه أهلٌ لذلك الهُدى، إذْ قال لأبيه وقَومِه: ما هذه الأصنامُ التي صَنَعتُموها ونحتُّمُوها بأيديكم، ثمَّ أنتم مُقيمونَ على عِبادتِها؟! قالوا لإبراهيمَ: وجَدْنا آباءَنا عابدينَ لها، ونحن نَعبُدُها اقتداءً بهم. قال لهم إبراهيمُ: لقد كنتُم أنتم وآباؤُكم في عبادتِكم لهذه الأصنامِ في بُعْدٍ واضحٍ بيّنٍ عن الحَقّ. قالوا: أجِئتَنا بالحَقّ والجِدّ، أم كلامُك لنا كلامُ لاعبٍ مُستَهزئٍ؟ قال لهم إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: بل ربُّكم الذي أدعوكم إلى عبادتِه هو ربُّ السَّمواتِ والأرضِ الذي خلَقَهنَّ وأبدَعَهنَّ، وأنا على ذلك مِن الشَّاهدينَ، وتاللهِ لأمكُرَنَّ بأصنامِكم وأُكَسِّرُها بعد أن تَنصَرِفوا عنها.

فحطَّم إبراهيمُ الأصنامَ وجعَلَها قِطَعًا صغيرةً إلَّا صَنَمًا كَبيرًا لهم لم يُكَسِّرْه؛ لعَلَّ عابِديه يسألونَه عمَّن كَسَّرَ أصنامَهم؛ فيتبَيَّنَ عَجزُه، وتقومَ الحُجَّةُ عليهم. ولَمَّا رأَوا أصنامَهم مُحطَّمةً مُهانةً، قالوا: مَن فعَلَ هذا بآلهَتِنا، إنَّه لظالمٌ بصَنيعِه واجترائِه على آلهتِنا؟! قال الذين سَمِعوا إبراهيمَ يَحلِفُ بأنَّه سيكيدُ أصنامَهم: سَمِعْنا فتًى يقالُ له إبراهيمُ، يَذكُرُ أصنامَنا بالعَيبِ والنَّقصِ والذَّمّ. قال قَومُ إبراهيمَ بَعضُهم لبعضٍ: فَأْتُوا بإبراهيمَ على مرأًى من النَّاسِ؛ كي يَشهَدوا عُقوبتَنا له.

يقول تعالى: جيءَ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ، وسألَه قومُه مُنكِرينَ عليه: أأنت الذي كسَّرْتَ آلهتَنا يا إبراهيمُ؟ فقال: بل الذي كسَّرها هذا الصَّنَمُ الكبيرُ، فاسألوا آلهَتَكم عن ذلك إن كانت تتكَلَّمُ! فرَجَعوا إلى أنفُسِهم، فقال بعضُهم لِبَعضٍ: إنَّكم أنتم الظَّالِمونَ. ثمَّ عادوا إلى جهلِهم وعِنادِهم فانقَلَبوا إلى الباطِلِ والانتصارِ لأصنامِهم، فقالوا: كيف نسألُها، وقد عَلِمْتَ أنَّها لا تَنطِقُ؟

قال إبراهيمُ مُوَبِّخًا لِقَومِه محقِّرًا لشأنِ الأصنامِ: كيف تَعبُدونَ أصنامًا لا تنفَعُ عابِديها ولا تَضُرُّهم؟! قُبحًا لكم ولآلهَتِكم التي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ تعالى، أفلا تَعقِلونَ فتُدرِكونَ سُوءَ ما أنتم عليه؟ فقالوا: حَرِّقوا إبراهيمَ بالنَّارِ؛ غضَبًا لآلهتِكم إن كنتُم ناصرينَ لها. فأشْعَلوا نارًا عظيمةً وألقَوه فيها، فقال الله تعالى للنَّارِ: كوني بَردًا وسَلامًا على إبراهيمَ. فلم يَنَلْه فيها أذًى، ولم يُصِبْه مكروهٌ. وأراد القَومُ بإبراهيمَ كيدًا فأبطل اللهُ كَيدَهم، وجعَلَهم المغلوبينَ الأسفَلينَ.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾﴿71﴾

(وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) أي: ونجَّينا إبراهيمَ ولوطًا مِن أعدائِهما الكافِرينَ، فأخرَجْناهما إلى الأرضِ التي بارَكْنا فيها للعالَمينَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) [العنكبوت: 26].

وقال الرازي: جمَع بينَ إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السَّلامُ؛ لأنَّ في كونِ لوطٍ معه -مع ما كان بيْنَهما مِن القَرابةِ والشَّرِكةِ في النبُوَّةِ- مَزيدَ إنعامٍ.

قال ابن جرير: (لا خِلافَ بين جميع أهل العِلمِ أنَّ هِجرةَ إبراهيمَ مِن العراقِ كانت إلى الشام، وبها كان مُقامُه أيام حياتِه).

قال ابن عاشور: (والأرض: هي أرضُ فلسطين).

وقال القرطبي: (وقيل لها: مُباركةٌ؛ لكثرةِ خِصبِها وثمارِها وأنهارِها، ولأنَّها معادِنُ الأنبياءِ).

وقال ابن عاشور: (وصَفَها الله بأنَّه باركها للعالَمينَ، أي: للنَّاسِ، يعني الساكنينَ بها؛ لأنَّ الله خلقها أرضَ خِصبٍ ورخاءِ عَيشٍ، وأرضَ أمنٍ).

وقال الشنقيطي: في هذه الآيةِ الكريمةِ دَليلٌ على أنَّ الفِرارَ بالدِّينِ مِن دارِ الكُفرِ إلى بلَدٍ يتمَكَّنُ فيه الفارُّ بدينِه مِن إقامةِ دينِه- واجِبٌ، وهذا النَّوعُ من الهِجرةِ وُجوبُه باقٍ بلا خلافٍ بين العُلَماءِ في ذلك.

قال ابن جرير: هذه القِصَّةُ التي قَصَّ اللهُ مِن نَبَأِ إبراهيمَ وقَومِه: تَذكيرٌ منه بها قَومَ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قُرَيشٍ أنَّهم قد سَلَكوا في عبادتِهم الأوثانَ، وأذاهم مُحَمَّدًا على نَهْيِه عن عبادتِها، ودُعائِهم إلى عبادةِ اللهِ مُخلِصينَ له الدِّينَ- مَسْلَكَ أعداءِ أبيهم إبراهيمَ ومخالفَتِهم دينَه؛ وأنَّ مُحَمَّدًا في براءتِه مِن عبادتِها، وإخلاصِه العبادةَ لله، وفي دُعائِهم إلى البَراءةِ مِن الأصنامِ، وفي الصَّبرِ على ما يَلقَى منهم في ذلك- سالِكٌ مِنهاجَ أبيه إبراهيمَ، وأنَّه مُخرِجُه مِن بينِ أظهُرِهم كما أخرجَ إبراهيمَ مِن بينَ أظهُرِ قَومِه - حين تمادَوا في غَيِّهم- إلى مُهاجَرِه مِن أرضِ الشَّامِ؛ ومُسَلٍّ بذلك نَبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا يَلقَى مِن قَومِه مِن المكروهِ والأذى، ومُعْلِمُه أنَّه مُنَجِّيه منهم، كما نجَّى أباه إبراهيمَ مِن كَفَرةِ قَومِه.الدرر السنية

لوط عليه السلام: هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام وقد صرح القرآن باسم لوط في أكثر من خمسة وعشرين موضعاً، هو ابن هاران شقيق إبراهيم، لم يؤمن من قوم ابراهيم الا زوجته ساره وابن شقيقه لوط وكان صغيرا وأخذه عمه ورباه معه وقد امن بالله الواحد. ولما نجا الله إبراهيم ولوط وساره من نمرود وقومه فقرروا أن يتركوا أرض العراق الى أرض الشام فنزل ابراهيم وزوجه ساره ولوط بحاران ومكثوا فيها ماشاء الله لهم ثم خرجوا منها الى مصر ثم من مصر الى الشام ونزل ابراهيم وساره ببئر سبع ونزل لوط بالمؤتفكه وهي على مسيرة يوم وليله من بئر سبع وكانت قرى لوط سبع قرى وهم قرى سدوم فى الأردن

فوجدهم قوم فاسقين فبدأ يهديهم ويقول لهم يا قوم أتأتون ما حرم الله عليكم وتعصون الله بفعلكم الفاحشة وكانت فاحشتهم هى إتيان الذكور ولكن قومه تمادوا فى غيهم.

إبراهيم -عليه السلام- لما خرج من مصر، اصطحب معه في سفره لوطًا -عليه السلام-، ورجعا من مصر بمال كثير وخير وفير، ونزلا بأرض فلسطين تلك الأرض المقدسة ثم ضاقت بأنفسهما بقعة الأرض التي نزلاها، فنزح لوط عن محلة إبراهيم واستقر به المقام بمدينة سدوم، وقد كان أهلها ذوي أخلاق فاسدة ونوايا سيئة، لا يتعففون عن معصية، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة وأخبثهم سريرة، يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويتربصون لكل سار، فيجتمعون عليه من كل حدب وصوب، ويسلبونه ما حمل ثم يتركونه يندب حظه ويبكي ضياع ماله، لا يردهم عن ذلك دين ولا يصدهم حياء ولا يتعظون لواعظ ولا يستمعون لنصيحة من عاقل.

وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقوا إلى ارتكابها من أحدٍ من العالمين، وتعاطوا محرمًا ما كان يدور بخلد أحد اقترافه، فكانوا يأتون الذكران من العالمين، ويتركون ما خلق الله لهم من النساء فلا يقربوهن، وتمادوا في ضلالهم حتى فشت المنكرات بينهم وكثرت الموبقات بينهم، وأشربت قلوبهم حب الفاحشة، ولما أصاب القوم ما أصابهم، واستحبوا الضلالة على الهدى، وآثروا الغواية على الرشد، واستحوذ عليهم الشيطان يستميلهم إلى المعاصي ويزين لهم الشهوات.

أوحى الله إلى لوط أن يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ارتكاب هذه الجرائم، فدعاهم وأعلن بينهم رسالته، ولكن آذانهم لم تسمع لقوله، وعيونهم عميت عن الحق، وقلوبهم غلقت فاندفعوا في شرورهم، واستمروا على فجورهم وتمادوا في طغيانهم، ولم يرتدعوا عن غيهم، بل حدثتهم نفوسهم الأمارة بالسوء، وسولت لهم عقولهم التي أضاعها العبث وتملكها الشر أن يخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم، فتوعدوه ومن معه بالإبعاد عن قريتهم، ولم يرتكب جرمًا إلا بعده عن مساوئهم، ولم يقترف إثمًا، إلا أنه تطهر من دنسهم ولم يسر في طريقهم ونأى عن قبائحهم، ودعاهم إلى صراط الله المستقيم.

ولما رأى منهم ميلاً وابتعادًا عن طاعة الله، خوفهم بأس الله وعذابه، فلم يأبهوا لتحذيره واستخفوا بوعيده، فألح عليهم بالعظات، وأنذرهم سوء العاقبة، ولكنهم لم يقلعوا عما كانوا فيه، بل ازدادوا تعلقًا به ورغبة فيه، وتحدوه أن العذاب لن ينزل عليهم، وأن الله لن ينزل بهم ما يستحقون من عقاب.

بعد ذلك سأل لوط ربه أن ينصره على هؤلاء القوم المفسدين، وأن يوقع بهم العذاب الأليم، وطلب إليه أن يخزيهم على كفرهم وعنادهم ويعاقبهم على بغيهم وفجورهم، فهم الداء الوبيل الذي يخاف انتشاره، والعضو المريض الذي لابد من استئصاله.

عاثوا في الأرض فسادًا، وصدوا عن سبيل الله، فاستجاب الله -عز وجل- دعاء لوط -عليه السلام- بعث ملائكته إلى هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا، لينزلوا بهم ما يستحقون من عقاب، فنزلوا أولاً بدار

إبراهيم –عليه السلام–، فحسبهم عابري سبيل، فقدم لهم خير ما يقدم للأضياف، ولكن أيديهم لم تمتد إلى قراه، فنكرهم وأوجس منهم خيفة، قالوا: لا تخافوا، ولم يزالوا بالمكان حتى بشروه بغلام عليم.

ثم سألهم إبراهيم: ما خطبكم أيها المرسلون؟! قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم لوط الذين لم يستجيبوا لدعوته فكانوا من المجرمين، وسننزل بهم عذابًا أليمًا وبأسًا شديدًا، فحزن إبراهيم لذلك، وأخذ يجادلهم في قوم لوط، ويرجو تأخير البلاء وتأجيل وقوع العذاب، ولعله كان يأمل منهم الإنابة إلى الله والإقلاع عما يرتكبون من الذنوب والرجوع عما يقترفون من الفواحش، وقد يكون إبراهيم –عليه السلام– قد خاف أن يُمس لوط بأذى وهو مؤمن منكر لما يرتكبون، فهو لا يستحق العذاب، فأمره الملائكة أن يهون على نفسه وأخبروه أن لوطًا لن يصيبه أذى ولن يمسه عذاب، وسيكون هو وأهله من الناجيين، إلا امرأته فإن هواها معهم ورأيها تبع لرأيهم.

ثم ذهبت الملائكة إلى أرض سدوم في صورة شبان حسان، وفيما هم يهمون بدخول هذه القرية عرضت لهم جارية تستسقي الماء لأهلها، فسألوها أن تضيفهم، فأشفقت من قومها عليهم، واستضعفت نفسها عن حمايتهم، وأرادت أن تستنجد بأبيها في الدفاع عنهم، فأمهلتهم حتى تذهب إليه فتستشيره في أمرهم، وأتت أباها، فقالت: يا أبتاه: أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط أصبح من وجوههم، وأخاف أن يعلم بأمرهم قومك فيفضحونهم، تسلل لوط خفية وسار حتى التقى بالملائكة، فاستقبلهم ببشره، وتلقاهم بوجهه، ثم دعاهم إلى بيته، فلما دخل بهم داره مع كتمانه لأمرهم خوفًا أن يتسرب إلى القوم خبرهم، إلا أن امرأته كانت تساير القوم في طريقتهم، فأفشت خبرهم، وأعلمت قومها بأمرهم، فجاؤوا إليه مسرعين، وأقبلوا عليه مستبشرين.

وفزع لوط حين رأى القوم قد اجتمعوا يريدون الفاحشة ويرغبون في المنكر، فناشدهم تقوى الله، ودعاهم إلى ستر مخازيهم، والكف عن مساوئهم، ولكنهم جميعًا فجرة سفهاء لم يستمعوا توسله ولم ينزلوا على إرادته، فأغلق الباب دونهم وحال بينهم وبين ما يشتهون.

ثم أرشدهم إلى غشيان نسائهم اللاتي جعلهن الله حلالاً لهم، وحذرهم من عاقبة فعلهم، ومع ذلك لم ينتهوا، بل ازدادوا خبثًا وتشبثًا بما عزموا عليه من الفاحشة، وقالوا للوط: إنك تعلم أنه ليس لنا في النساء من حاجة أو رغبة، وإنك لتعلم ما نريد، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) [الأعراف 80 :84].

إن لوطًا –عليه السلام– ضاقت به السبل من إصرار قومه على فعل الفاحشة، وسدت أمامه أبواب الأمل، فأخذه الكرب، فأخذ يفكر كيف يخلص ضيوفه من مكر قومه فقال: لو أن لي بكم قوة

لاستطعت أن أمنع عدوانكم، وآمن شركم، وأقف في وجوهكم، ولو كنت في منعة وعزة لمنعت ولقومت معوجكم وألنت قناتكم.

لكن القوم قد أعمتهم الضلالة، وأصروا على فاحشتهم، فغشيه الحزن، وتملكته ثورة من الغضب، وحين يئس من ردّهم، ولما رأى الملائكة ما هو فيه من الوجد والحزن ردوا لهفته وسكنوا روعه وقالوا: يا لوط: إنا رسل ربك، جئنا لإنقاذك، ودفع العدوان عنك، فلن يصل هؤلاء الكفرة المفسدون إليك، وإنهم لمنهزمون.

ثم إن القوم بعد ذلك تولاهم الفزع والرعب فتولوا هاربين، متوعدين لوطًا بعد أن كشف الله عنه الغمة وأصبح لا يأبه لوعيدهم وتهديدهم.

ثم أمره الملائكة أن يسري هو وأهله بقطع من الليل -آي آخره- ويتركوا هذه القرية التي أذن الله -عز وجل- أن ينزل بهم العذاب، ثم نهوه أن يصطحب معه امرأته، فسيحل بها ما حل بالقوم لنفاقها ومشايعتها لهم، وأمروه أن يصبر ويثبت عند نزول العذاب بقومه، فلما خرج لوط وأهله وابتعد عن القرية جاءها أمر الله ونزل بها عذابه وزلزلت الأرض زلزالها، فصار عاليها سافلها، ثم غشيت بمطر من سجيل -وهي الحجارة الصغيرة-، فأصبحت ديارهم خاليه، وبيوتهم خاوية بما ظلموا (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ).

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:(مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ). وصححه الألباني في صحيح الترمذي

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :(لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، ثَلاثًا) وحسنه شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند.

قال ابن عباس رضي الله عنه عن طريقة عقاب المجرم بهذه الفعلة الشنيعة: يرمى به من أعلى شاهق، ويتبع بالحجارة.

قال أهل العلم : ولم يبتل الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدا من العالمين ، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم ، وجمع عليهم أنواعا من العقوبات من الإهلاك ، وقلب ديارهم عليهم ، والخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء ، وطمس أعينهم ، وعذّبهم وجعل عذابهم مستمرا فنكّل بهم نكالا لم ينكّله بأمة سواهم ، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عُملت عليها ، وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها ، فيصيبهم معهم ، وتعج الأرض إلى ربها تبارك وتعالى وتكاد الجبال تزول عن أماكنها .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾﴿72﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي أنَّ الله تعالى بعد ذِكرِه لإنعامِه على إبراهيمَ وعلى لوطٍ عليهما السَّلامُ بأن نجَّاهما إلى الأرضِ المباركةِ؛ أتبَعَه بذِكرِ غَيرِه مِن النِّعَمِ.

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) أي: وأعْطَينا إبراهيمَ ابنَه إسحاقَ، وأعْطَيناه حَفيدَه يَعقوبَ بنَ إسحاقَ زيادةً، وفَضلًا منَّا. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (قوله تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً أي: زيادةً؛ لأنَّه دعا في إسحاقَ، وزِيدَ يَعقوبَ مِن غَيرِ دعاءٍ، فكان ذلك نافِلةً، أي: زيادةً على ما سأل؛ إذ قال: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ [الصافات: 100]. ويُقالُ لوَلَدِ الوَلَدِ نافِلةٌ؛ لأنَّه زيادةٌ على الوَلَدِ).

كما قال تعالى:(فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا) [مريم: 49].

من تَرَك شيئاً لله... عوّضه الله خيراً منه، اعتزال المعصية، ومكان المعصية، وأهل المعصية لوجه الله، يفتح للعبد باباً بإذن الله تعالى من هبات الله وعطائه ما لا يخطر على بال، اعتزال المعاصي وأهلها سبب لنيل نعمة الذرية وصلاحهم.

(وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ) أي: وكُلًّا من إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ جعَلْنا طائِعينَ لله، مُجتَنِبينَ محارِمَ اللهِ. موسوعة التفسير

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾﴿73﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: أنَّه لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنَّه أعطاهم رُتبةَ الصَّلاحِ في أنفُسِهم؛ ذكَرَ أنَّه أعطاهم رُتبةَ الإصلاحِ لِغَيرِهم، فقال مُعَظِّمًا لإمامتِهم.

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) أي: وجعَلْنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ أئمَّةً يَقتَدي بهم النَّاسُ في طاعةِ اللهِ، ويَدْعونَ النَّاسَ بأمْرِنا إلى عبادةِ اللهِ، واتِّباعِ أمْرِه، واجتنابِ نَهْيِه. موسوعة التفسير

قال القرطبي:(ومعنى بِأَمْرِنَا: أي: بما أنْزَلْنا عليهم مِن الوحيِ والأمرِ والنَّهيِ، فكأنَّه قال: يَهْدونَ بكتابِنا).

قال السعدي: هذا مِن أكبَرِ نِعَمِ اللهِ على عَبدِه؛ أن يكونَ إمامًا يَهتدي به المهتَدونَ، ويمشي خَلفَه السَّالِكونَ، وذلك لَمَّا صَبَروا وكانوا بآياتِ الله يُوقِنونَ.

قال الزمخشري: فيه أنَّ مَن صلَحَ لِيَكونَ قُدوةً في دينِ اللهِ، فالهدايةُ مَحتومةٌ عليه، مأمورٌ هو بها مِن جهةِ الله، ليس له أن يُخِلَّ بها، ويتثاقَلَ عنها، وأوَّلُ ذلك أن يهتديَ بنَفْسِه؛ لأنَّ الانتِفاعَ بهُداهُ أعَمُّ، والنُّفوسَ إلى الاقتداءِ بالمهْدِيِّ أمْيَلُ.

قال ابن عاشور: وهذا الهَدْيُ هو تزكيةُ نُفوسِ النَّاسِ، وإصلاحُها، وبثُّ الإيمانِ، ويشمَلُ هذا شؤونَ الإيمانِ وشُعَبَه وآدابَه.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ) أي: وأوحَينا إلى إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ أن يفعَلوا هم وقَومُهم الطَّاعاتِ، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ. موسوعة التفسير

مِن عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ دَلالةٌ على فَضْلِهما وإنافَتِهما، وتَنويهٌ بشأْنِهما؛ لأنَّ بالصَّلاةِ صَلاحَ النَّفْسِ؛ إذ الصَّلاةُ تَنْهَى عن الفَحشاءِ والمنكَرِ، وبالزَّكاةِ صَلاحَ المجتمَعِ لكِفايةِ عَوَزِ المعْوزينَ؛ قال السعدي: ولأنَّ مَن كَمَّلَهما كما أُمِرَ، كان قائمًا بدِينِه، ومَن ضَيَّعَهما كان لِمَا سِواهما أضْيَعَ، ولأنَّ الصَّلاةَ أفضَلُ الأعمالِ التي فيها حَقُّه، والزَّكاةَ أفضَلُ الأعمالِ التي فيها الإحسانُ لخَلقِه. الدرر السنية

(وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) أي: وكانوا لنا طائِعينَ بإخلاصٍ وذُلٍّ وخُضوعٍ وخُشوعٍ، يَفعَلونَ ما يأمُرونَ النَّاسَ به، ويجتَنِبونَ ما يَنهونَهم عنه. موسوعة التفسير

العبودية قضية حتمية لا فكاك للإنسان منها بحال من الأحوال، وهي حاصلة في واقع الناس حصولاً محققًا، في كل زمان وفي كل مكان، هي حتمية لأن في الإنسان حاجة وفقرًا وضعفًا، وهو بين حالين لا ثالث لهما، إما أن يتوجه بعبادته وخضوعه وانكساره لله الواحد القهار فيكون موحدًا مطيعًا، مطمئنًا سعيدًا، وإما أن يكون خاضعًا أسيرًا ذليلاً لمعبودات باطلة من الآلهة الكثيرة من الأصنام والأوثان، والهوى والشهوة، والمال والملذات، وكل ما تعلق به فتجاوز به حده من محبوب أو متبوع أو مطاع، (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) [الجاثية: 23].

إنه لا فلاح للإنسان ولا حرية ولا سعادة إلا بتحقيق العبودية لربه وخالقه ومالكه الإله الحق، بهذه العبودية تُكْتَسب الحرية، وبهذا الذل تُرتَقى درجات العز، وبمقدار الخضوع تكون الرفعة، إذا أحسن المرء العبادة وأخلصها ترقَّى في درجات الكمال الإنساني، وأصبح لحياته قيمة، وصار لعمله لذة، ولئن كان الغنى غنى النفس فإن الحرية حرية القلب كما أن الرق رق القلب. (الخطباء)

العبادةَ كما عرفها شيخِ الإسلامِ ابن تيمية رحمه الله: "هو اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحِبُّهُ اللهُ ويرضاهُ من الأعمالِ والأقوالِ الظاهرةِ والباطنة ". والعبودية الطاعة لله مع الخضوع له، فيفعل المكلف خلاف هوى نفسه، طاعة لله وتعظيمًا له، العبادة الحقة حركات في الظاهر واعتقاد في الباطن وطمأنينة في النفس، تواطؤ وتوافق بين عبودية القلب وعبودية الجوارح، لا بد في العبادة من الجمع بين المحبة والخضوع، فيحب العبد ربه أحب من كل شيء، ويعظمه أعظم من كل شيء، فالمحبة الخالصة والخضوع التام لا يكونان إلا لله رب العالمين لا شريك له. (الخطباء)

إن مبنى العبودية على التسليم والانقياد والاستجابة في فعل المأمورات وترك المنهيات، (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [الأحزاب: 36].

العبودية الصادقة تسمو بها الروح، وتتهذب فيها غرائز العبد وشهواته، يترجح جانب الخير على جانب الشر، ويتجلى وقوف العبد بين يدي ربه واستحضار علمه وعظمته وإحاطته، للعبادة الصحيحة أثر عظيم في النفس، وطمأنينة في القلب، العبودية أعظم ما يحصله الإنسان في هذه الحياة لتكون وسيلته إلى السعادة ورضى الله وبلوغ جنته ودار رضوانه، وفي الحديث القدسي: " إنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ يا ابنَ آدمَ

: تفرَّغْ لعبادتي أملأْ صدرَكَ غنًى وأسدَّ فقرَكَ وإن لا تفعَل ملأتُ يديْكَ شغلاً، ولم أسدَّ فقرَكَ " صحيح الترمذي

القلب إذا ذاق طعم العبادة والإخلاص لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألذ ولا أمتع " قال -ﷺ-:"ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن رَضِيَ باللَّهِ رَبًّا، وبالإسْلامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ رَسولًا " صحيح مسلم.

إن مما يعين على تحقيق العبودية وإحسان العبادة حضور القلب، وإخلاص النية، وتحديث القلب وتذكيره بالتعبد لله في حال العبادة وخارجها، وهذا التذكير نهر يمد القلب باللين والرقة والخشوع، حتى لا يشح ماؤه.

﴿وَلُوطًا آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾﴿74﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: أنَّ الله سُبحانَه بعد بيانِ ما أنعَمَ به على إبراهيمَ عليه السَّلامُ، أتبَعَه بذِكرِ نِعَمِه على لوطٍ عليه السَّلامُ لَمَّا جمَعَ بينَهما مِن قَبلُ.

(وَلُوطًا آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) أي: وآتَينا لوطًا النبُوَّةَ، وآتيناه عِلمًا عَظيمًا في شريعتِه، وفَهمًا ومعرفةً بأمرِ دينِه، وما يقَعُ به الحُكمُ بين الخُصومِ. موسوعة التفسير

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ) أي: ونجَّينا لوطًا مِن أهلِ القَريةِ الذين كانوا يفعَلونَ الأفعالَ الشَّنيعةَ القبيحةَ؛ كالكُفرِ، وإتيانِ الذُّكورِ، وغيرِ ذلك، فأخرَجْناه منها، ولم يُصِبْه ما أصابَهم مِن العذابِ والهلاكِ. موسوعة التفسير

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ) أي: وذلك لأنَّهم كانوا أصحابَ عملٍ سَيِّئٍ، خارجينَ عن طاعةِ الله. موسوعة التفسير

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾﴿75﴾

(وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا) أي: وأدخَلْنا لوطًا في رَحمَتِنا بإنجائِنا له مِن عذابِ قَومِه في الدُّنيا، وبإدخالِه الجنَّةَ في الآخِرةِ. موسوعة التفسير

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((احتَجَّت النَّارُ والجَنَّةُ، فقالت هذه: يَدخُلُني الجبَّارونَ والمتكبِّرون، وقالت هذه: يدخُلُني الضُّعَفاءُ والمساكينُ. فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهذه: أنتِ عذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ -وربما قال: أصيبُ بكِ مَن أشاءُ، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أرحَمُ بكِ من أشاءُ، ولكُلِّ واحدةٍ منكما مِلؤُها)). صحيح مسلم

(إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) أي: أدخَلْناه في رَحمتِنا؛ لأنَّه من الأنبياءِ الطَّائعينَ لله، العامِلينَ بوَحيِ اللهِ، المستَقيمينَ على أمرِ اللهِ ونَهْيِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: الصَّلاحُ هو السَّبَبُ لدُخولِ العَبدِ برَحمةِ الله، كما أنَّ الفَسادَ سَبَبٌ لحرمانِه الرَّحمةَ والخَيرَ، وأعظَمُ النَّاسِ صَلاحًا الأنبياءُ عليهم السَّلامُ؛ ولهذا يَصِفُهم بالصَّلاحِ، وقال سليمانُ عليه السَّلامُ: (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)[النمل: 19].

وَإِنَّ مِن لَوَازِمِ الهِدَايَةِ أَن يَحرِصَ المسلِمُ عَلَى أَن يَكُونَ عَبدًا صَالِحًا، لِيَلحَقَ بِالصَّالِحِينَ وَيَنَالَ رَحمَةَ رَبِّ العَالَمِينَ، وَلأَهمِيَّةِ الصَّلاحِ وَعِظَمِ أَمرِهِ ، فَقَد دَعَا الأَنبِيَاءُ بِهِ لأَبنَائِهِم قَبلَ وُجُودِهِم ، وَدَعَوا بِهِ لأَنفُسِهِم وَحَرِصُوا عَلَى أَن يُختَمَ لَهُم بِهِ ، فَهَذَا إِبرَاهِيمُ – عَلَيهِ السَّلامُ – يَدعُو رَبَّهُ قَائِلاً : " رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ " وَيَقُولُ : " رَبِّ هَبْ لِي حُكمًا وَأَلحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ " وَهَذَا يُوسُفُ – عَلَيهِ السَّلامُ – يَدعُو رَبَّهُ قَائِلاً : " تَوَفَّنِي مُسلِمًا وَأَلحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ "

إِنَّ لِلصَّلاحِ فَضلاً عَلَى أَهلِهِ وَثِمَارًا يَجنُونَهَا فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنَّ لأَهلِهِ عِندَ رَبِّهِم مَنزِلَةً عَظِيمَةً وَمَكَانَةً عَالِيَةً، فَالصَّالِحُونَ مَوعُودُونَ بِوَلايَةِ اللهِ لَهُم، وَمَن تَوَلاَّهُ اللهُ فَمَا أَعظَمَ حَظَّهُ! قَالَ – سُبحَانَهُ –: " إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ " وَلِلصَّالِحِينَ بِشَارَاتٌ وَكَرَامَاتٌ تَطمَئِنُّ بِهَا نُفُوسُهُم، وَتُثَبَّتُ بِهَا قُلُوبُهُم، وَذَلِكَ بِمَا يُكرَمُونَ بِهِ مِنَ الرُّؤَى الصَّالِحَةِ الصَّادِقَةِ، وَالصَّالِحُونَ هُمُ المستَحِقُّونَ لِلتَّمكِينِ فِي الأَرضِ، وَمِن ثِمَارِ صَلاحِ العَبدِ أَنَّهُ يُدخِلُ صَاحِبَهُ فِيمَن يُسَلِّمُ عَلَيهِم المصَلُّونَ فِي كُلِّ صَلاةٍ، أَنَّهُ يُبَشَّرُ عِندَمَا يُوضَعُ عَلَى قَبرِهِ فَيَستَعجِلُ الدَّفنَ لِذَلِكَ "إِذَا وُضِعَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ عَلَى سَرِيرِهِ قَالَ : قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي"، والجَنَّة فِي الآخرة، وَفِي الحَدِيثِ القُدسِيِّ الَّذِي رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسلِمٌ قَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – : أَعدَدتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَينٌ رَأَت، وَلا أُذُنٌ سَمِعَت ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلبِ بَشَرٍ".

لَو جَاهَدَ كُلٌّ مِنَّا نَفسَهُ عَلَى تَقوَى اللهِ وَمُرَاقَبَتِهِ وَالخَوفِ مِنهُ حَيثُمَا كَانَ ، وَأَتبَعَ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ وَلَم يُصِرَّ عَلَى خَطَئِهِ ، وَخَالَقَ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ، لَكَانَ بِهَذَا صَالِحًا صَلاحًا حَقِيقِيًّا يَنفَعُهُ اللهُ بِهِ ، وَيَنفَعُ بِهِ مَن حَولَهُ ، فَكَيفَ لَو أَضَافَ إِلَى ذَلِكَ الدَّعوَةَ إِلَى سَبِيلِ اللهِ بِالحِكمَةِ وَالموعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وَأَمَرَ بِالمعرُوفِ وَنَهَى عَنِ المنكَرِ بِحَسَبِ مَا يَستَطِيعُ ، وَبَذَلَ مِن مَالِهِ وَوَقتِهِ وَجُهدِهِ فِي خِدمَةِ إِخوَانِهِ المسلِمِينَ ؟! إِنَّهُ بِذَلِكَ يَكُونُ عَبدًا رَبَّانِيًّا سَابِقًا بِالخَيرَاتِ بِإِذنِ اللهِ، وَبِذَلِكَ يُخرِجُ نَفسَهُ مِن حِزبِ الخَاسِرِينَ، قَالَ – سُبحَانَه –: "وَالعَصرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوا بِالصَّبرِ "، إِنَّنَا عَلَى عِلمٍ بِكَثِيرٍ مِنَ الحَلالِ المرَخَّصِ فِيهِ ، وَلا يَخفَى عَلَينَا فِي الغَالِبِ الحَرَامُ المَمنُوعُ ، وَقَلَّ مِنَّا مَن يَجهَلُ مَا يَسُوغُ وَمَا لا يَسُوغُ ، وَلَكِنَّنَا بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ مَاسَّةٍ ، إِلَى صَلاحٍ عَمَلِيٍّ فِي وَاقِعِنَا ، يَرَاهُ الصَّغِيرُ مِنَّا فِي الكَبِيرِ ، وَيَأخُذُهُ الابنُ عَنِ الأَبِ وَالطَّالِبُ عَنِ المعلِمِ ، وَيَثبُتُ بِهِ لِلنَّاسِ عِظَمُ هَذَا الدِّينِ وَأَثَرُ التِزَامِ أَحكَامِهِ وَأَخلاقِهِ فِي صَلاحِ حَيَاتِهِم وَسَعَادَةِ قُلُوبِهِم وَرَاحَةِ نُفُوسِهِم ، نَحنُ بِحَاجَةٍ إِلَى صَالِحِينَ مُستَقِيمِينَ عَلَى الأَمرِ وَالنَّهيِ ، مُتَّبِعِينَ لِلسُّنَّةِ فِي كُلِّ شَأنٍ مِن شُؤُونِهِم ، فِي المسجِدِ وَفِي السُّوقِ وَفِي البَيتِ ، وَفِي العِبَادَةِ وَالمعَامَلَةِ وَالأَخلاقِ ، وَفِي القَولِ وَالعَمَلِ وَالحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ، وَفِي العُسرِ وَاليُسرِ وَالمنشَطِ وَالمكرَهِ ، وَفِيمَا أَحَبُّوا وَفِيمَا كَرِهُوا.

خلاصة دعوة الأنبياء والمرسلين: جاؤوا ليعرفوا الناس بربهم وإلههم -سبحانه-، جاؤوا ليعرفوا الناس بمآلهم وما يصيرون إليه من جنة أو نار، جاؤوا ليقيموا العدل بين الناس، وليضعوا للناس نظاما يتحاكمون إليه، ويقيمون به مصالحهم وحياتهم، وهذه كلها لا يمكن للبشر أن يأتوا بها من محض عقولهم، بل لا بد لهم من نور النبوة والرسالة.

قصة لوط عليه السلام: مسفر بن سعيد بن محمد الزهراني.